العدد: 02/سبتمبر2019 المجلد: 08 ISSN: 1112-7015
ص: 37 - 51
EISSN: 2602-5973

# متخيّل المدينة وهولوكوست[1] الهوية في قصيدة "في القدس" لتميم البرغوثي

د/وهيبة جراح

أستاذ محاضر أ

المركز الجامعي ميلة/الجزائر

Wahibadjerrah6@gmail.com

**ملخص:**

بين واقع يشهد حالات التيه والضياع الهوياتي والتغريب والانكسار والعدمية، وصورة مُثلى لمدينة سعى مخيال الشاعر إلى نسجها، ينبثق متخيّل المدينة كما أرادها الشاعر أن تكون، وتنبثق القصيدة حينها لتعبّر عن التضارب والصراع بين واقع مرير مدنّس، ومدينة متخيَّلةٍ مقدّسة.

تصوّر لنا قصيدة "في القدس" بعض المشاهد التي أصبحت تشوّه صورة المدينة وتخرجها عن أصلها وتعمل على تمزيق هويّتها وتهشيمها، عبر رصد مجموعة من مظاهر استيطان الآخر وهيمنته بشكل جعله يشكّل محرقةً للكينونة والهويّة والتاريخ.

في هذه المرحلة من البحث سنتحدّث عن " واقع المدينة والاستلاب الهوياتي" وسنسلط الضوء على استراتيجية أساسيّة اعتمدها الشاعر في رصد واقع المدينة وهو "التصوير" الذي عبره سنقف على بعض المشاهد الديستوبية التي وسمت صورة المدينة.

وسنبيّن الكيفيّة التي سعت بها القصيدة في هذه المرحلة لتجسيد الهولوكوست عبر جغرافيّة الأمكنة التي لم تعد تحتفظ بذاكرتها وخرائطها القديمة بل شتتها الصوت الإمبراطوري لتدخل في مرحلة اللامدينة والتشتت المكاني الذي يعدّ أكبر محرقة للهوية.

وكصورة مضادة للأولى، وكردّة فعل لفعل الهيمنة والتهميش والاستلاب، سنعمل على تتبّع الطريقة التي نحت بها الشاعر بمخياله صورة أخرى لقدسٍ تأبى أن تتنازل عن هويتها، تأبى الانصياع للآخر والذوبان فيه، الأمر الذي جعل الشاعر يعود إلى التاريخ العتيق كمرجع أساسيّ لرسم صورة المدينة الحقيقيّة التي جارت عليها الأزمان، هذا التاريخ الذي يصبح بمثابة مقوّم للتشكّل الهوياتي واسترجاع المستلب، وهو نفسه (التاريخ) الذي سيظلّ شاهدا على أصالة

العدد: 02/سبتمبر2019 المجلد: 08 ISSN: 1112-7015
ص: 37 - 51 EISSN: 2602-5973

القدس وأصالة من ينتمي إليها أبًا عن جدّ، "ففي القدس من في القدس لكنّ لا أرى في القدس إلاّ أنت".

**الكلمات المفاتيح:** الهلوكوست، الهوية، الميخيّل، المدينة، الرمزية،...

Entre une réalité qui témoigne des états d'errance, de perte d'identité, d'aliénation, de réfraction et de nihilisme, et une image idéale d'une ville que l'imagination du poète a cherché à tisser, l'imaginaire de la ville émerge telle que le poète l'a voulu, et le poème émerge alors pour exprimer le conflit et le conflit entre une réalité amère et profane et une ville sacrée imaginée.

Le poème «À Jérusalem» dépeint pour nous des scènes qui déforment l'image de la ville, la détournent de son origine et travaillent à déchirer et briser son identité, en observant un ensemble de manifestations de la colonisation et de la domination de l'autre d'une manière qui en fait un holocauste de l'être, de l'identité et de l'histoire.
la recherche, nous parlerons de «la réalité de la ville et de la dépossession identitaire», et nous éclairerons une stratégie de base adoptée par le poète pour surveiller la réalité de la ville, qui est la «photographie» à travers laquelle nous nous positionnerons sur certaines des scènes dystopiques qui ont caractérisé l'image de la ville.
Et nous montrerons comment le poème a cherché à ce stade à incarner l'Holocauste à travers la géographie de lieux qui ne conservent plus leur ancienne mémoire et leurs cartes, mais qui ont été dispersés par la voix impériale pour entrer dans la phase d'urbanisme et de dispersion spatiale, qui est le plus grand holocauste identitaire.
première, et en réaction à l'acte de domination, de marginalisation et d'aliénation, nous travaillerons à retracer la manière dont le poète a sculpté, avec son imagination, une autre image d'une ville sainte qui a refusé de renoncer à son identité, qui refuse d'obéir

العدد: 02/سبتمبر2019 المجلد: 08 ISSN: 1112-7015
ص: 37 - 51 EISSN: 2602-5973

à l'autre et de s'y dissoudre, ce qui a fait revenir le poète à l'histoire ancienne comme référence de base pour dessiner la véritable image de la ville qui C'est passé par les temps, cette histoire qui devient une base pour la formation des identités et la récupération des dépossédés, et c'est la même (histoire) qui continuera à témoigner de l'authenticité de Jérusalem et de l'originalité de ceux qui lui appartiennent de père en grand-père, "A Jérusalem il y a ceux à Jérusalem mais je ne vois que vous à Jérusalem.

**L'Holocauste, identité, imagination, ville, symbolisme,**

## 1-واقع المدينة والاستلاب الهوياتي:

يقصد بالهوية في أبسط تعاريفها؛ ما يجعل من الشيء ذاته هو، ويفرّقه عن ذوات الآخرين، " فهي تعبّر عن تساوي وتماثل موضوع أو ظاهرة ما مع ذلتها، أو تساوي موضوعات عديدة مع بعضها، فالموضوعان "أ" و" ب" يكونان متطابقين من حيث الهويّة إذا كانت كل الصفات والعلاقات التي تميّز "أ" مميّزة أيضا للموضوع "ب" والعكس بالعكس"[2].

وعادة ما ينظر إلى الهوية على أنّها مركب نفسي اجتماعي أساسه الإحساس بالانتماء إلى جماعة أو شعب ما، يصنع الالتقاء بين أفراده جملة خصائص وصفات ومشاعر ويتقاسمون التطلعات نفسها والأهداف الفكرية والحضارية الكبرى، وهذا المركب هو واحد من السّمات الإنسانية التي تقف وراء شكل الجماعة، وتوطده أكثر المصلحة المادية المباشرة التي يفرضها الواقع، وهو مركب تراكميّ الصفة، يتدخّل التاريخ بمختلف أحداثه في التأثير فيه وترسيخه[3].

واقع المدينة كما يحكيه الشاعر يمثّل محرقة للكينونة والحضارة والتاريخ، هو واقع يجسّد ما آلت إليه مدينة القدس من طمس لمعالم هويّتها، فها هو الشاعر يصف لنا الأجواء في القدس قائلا:

| |
|---|
| في القدسِ، بائعُ خضرةٍ من جورجيا برمٌ بزوجته |
| يفكرُ في قضاءِ إجازةٍ أو في طلاءِ البيتْ |
| في القدس، توراةٌ وكهلٌ جاءَ من مَنْهاتِنَ العُليا |

العدد: 02/سبتمبر2019 المجلد: 08 ISSN: 1112-7015
ص: 37 - 51
EISSN: 2602-5973

| |
|---|
| يُفَقَّهُ فتيةَ البُولُونِ في أحكامها |
| في القدسِ شرطيٌ من الأحباشِ يُغْلِقُ شَارِعاً في السوقِ، |
| رشَّاشٌ على مستوطنٍ لم يبلغِ العشرينَ، |
| قُبَّعة تُحَيِّي حائطَ المبكَى |
| وسياحٌ من الإفرنجِ شُقْرٌ لا يَرَوْنَ القدسَ إطلاقاً |
| تَراهُم يأخذونَ لبعضهم صُوَرَاً |
| مَعَ امْرَأَةٍ تبيعُ الفِجْلَ في الساحاتِ طُولَ اليَومْ |
| في القدسِ دَبَّ الجندُ مُنْتَعِلِينَ فوقَ الغَيمْ |
| في القدسِ صَلَّينا على الأَسْفَلْتْ |
| في القدسِ مَن في القدسِ إلا أنْتْ[4] |

بعين الواقع يستعرض لنا الشاعر واقع المدينة وما آلت إليه، مستخدما مقارنات ذكية، فيرينا تميم تركيبة مجتمعية عجيبة، غير متجانسة، لا تشترك إلا في المكان بغير وجه حق. فيها التجار الوافدون من جورجيا، تشغلهم أمور حياتية وتفاصيل يومية تكاد تكون محور تركيزهم. ترى الغرباء يحكمون المدينة، يغلقون الشوارع أو يفتحونها. وإذا نقّلت النظر أكثر، فسترى المستوطنين منهم يحملون السلاح، حتى من هم دون السن القانوني في دولة تدّعي احترام القانون. وترى أفواجا من السياح الذين قصدوا المدينة في قضاء إجازة، بلغت بهم السطحية أنّ أكثر ما يلفت انتباههم في هذه المدينة العظيمة بائعات الفجل اللواتي يقضين نهارهن في الساحات جلبا للقمة يعدن بها لأطفالهن ساعة الليل، بعد أن يكون النوم قد سرقهم من جوعهم[5].

المشهد موغل في الرمزيّة الميتولوجية، حيث يقوم الشاعر باستثمار مجموعة من المعطيات الدينية عبر توليف الحكاية بتكثيف المعنى المكتنز الذي تطفح به تلك الرمزيّة بما تملكه من قوّة ساحرة كونها " نتاج جمعيّ قامت به جماعة ما على مدى فترات زمنيّة طويلة نسبيا"[6].

الرمزيّة التواراتيّة في المشهد مقرونة بالفعل "لقّن" تشير إلى الكيفيّة التي يتمّ بها ترسيخ تعاليم الدين اليهودي، وبالتالي التمهيد لسيطرة الآخر واضمحلال الهويّة الذاتيّة/ الفلسطينيّة، حيث يشهد الواقع أنّه وفي فترة ماضية كانت الدراسة في فلسطين خاضعة لمناهج إسرائيل وبرامجها التي كانت تلقّن الطلبة أسفار العهد القديم باللّغة العبريّة[7]، وقد جنّبت الشاعر عمليّة الاستعانة برمزيّة

العدد: 02/سبتمبر2019 المجلد: 08 ISSN: 1112-7015
ص: 37 - 51
EISSN: 2602-5973

التوراة الكثير من الحشو والضجيج اللغوي، ومكّنته من تمرير المعنى المقصود بأقصر السُّبُلِ وأبلغها، ليرسم لنا بذلك لوحة تجسّد كل معاني الطّمس والإلغاء.

يواصل الشاعر سرد تفاصيل المدينة عبر رصد شواهد عن واقعها الكئيب الذي كان سببه محتلوها الذين تمادوا كثيرا في طغيانهم وهمجيّتهم وهذا ما تؤكّده مقولة:

| |
|---|
| في القدسِ دَبَّ الجندُ مُنْتَعِلِينَ فوقَ الغَيمْ |
| في القدسِ صَلَّينا على الأَسْفَلْتْ |

التي يشير فيها إلى أسلوب التعالي الذي تنتهجه السياسة الاستعمارية في إقامة مستوطناتهم التي يختارون لها مواقع استراتيجية عالية على سفوح الجبال لضمان سيطرتهم، وهذا ما يثمّن أكثر التراتبيّة التي تخضع لها الذات الفلسطينيّة في علاقتها بالآخر، إذ تنضوي المقولة تحت استعارة كبرى ذات طابع اتجاهي مفادها:

المستعمِر /الآخر –فوق

المستعمَر/الذات الفلسطينية– تحت

بهذه الطريقة يكون الصوت الإمبراطوري قد شتّت جغرافية الأمكنة، وعطّل كلّ ذاكرتها وفرض نفسه، فالقدس لم تعد تلك المدينة التي عرفها الشاعر وترعرع فيها، لا شيء في تركيبتها يوحي بأنّها هي، فقد كان قانون الأعادي حاجزا بين الذات وهويّتها، بين الدار وأهلها يقول:

| | |
|---|---|
| مرَرْنا عَلى دارِ الحبيب فرَدَّنا | عَنِ الدارِ قانونُ الأعادي وسورُها |
| فَقُلْتُ لنفسي رُبما هِيَ نِعْمَةٌ | فماذا تَرَى في القدسِ حينَ تَزُورُها |
| تَرَى كُلَّ ما لا تستطيعُ احتِمالَهُ | إذا ما بَدَتْ من جَانِبِ الدَّرْبِ دورُها |
| وما كلُّ نفسٍ حينَ تَلْقَى حَبِيبَها | تُسَرُّ ولا كُلُّ الغِيابِ يُضِيرُها |
| فإن سرَّها قبلَ الفِراقِ لِقاؤُه | فليسَ بمأمونٍ عليها سرُورُها |
| متى تُبْصِرِ القدسَ العتيقةَ مَرَّةً | فسوفَ تراها العَيْنُ حَيْثُ تُدِيرُها |

العدد: 02/سبتمبر2019 المجلد: 08 ISSN: 1112-7015
ص: 37 - 51
EISSN: 2602-5973

هكذا يتحوّل الفلسطينيّ في "محرقة العالمية إلى كائن بلا تاريخ ولا جغرافيّة ولا هويّة"[8]، وهذا ما نقل المكان من طابع المدينة إلى طابع اللامدينة التي دخلت في كيمياء عرقية وبشرية وثقافية مغايرة تماما للأصل الذي عُرِفت به.

وبحنكة سارد وبراعة فنان، يخترع الشاعر حيلة خطابية أخرى يؤكّد من خلالها إحساسه وما ذهب إليه في المشهد الأوّل، لكي يرسم واقع الذات المهمّشة والمهشّمة في علاقتها بصورة المدينة الكئيبة والمحتلّة، فيقول:

| |
|---|
| وَتَلَفَّتَ التاريخُ لي مُتَبَسِّماً |
| أَظَنَنْتَ حقاً أنَّ عينَك سوفَ تخطئهم، وتبصرُ غيرَهم |
| ها هُم أمامَكَ، مَتْنُ نصٍّ أنتَ حاشيةٌ عليهِ وَهَامشٌ |
| أَحَسبتَ أنَّ زيارةً سَتُزيحُ عن وجهِ المدينةِ يابُنَيَّ |
| حجابَ واقِعِها السميكَ لكي ترى فيها هَواكْ |
| في القدسِ كلُّ فتى سواكْ |
| وهي الغزالةُ في المدى، حَكَمَ الزمانُ بِبَيْنِها |
| ما زِلتَ تَرْكُضُ خلفها مُذْ وَدَّعَتْكَ بِعَيْنِها |
| فَارفق بِنَفسكَ ساعةً إني أراكَ وَهَنْتْ |
| في القدسِ من في القدسِ إلا أَنْتْ |

عبر استعارة تجعل من التاريخ كائنا حيّا يتكلّم ويبتسم، يمارس الشاعر حيلته الفنيّة التي من خلالها يؤكّد على موقع الذات من واقع المدينة المحتلة، هذه الذات التي يبدو أنه قد لحقها من الإقصاء والنّبذ ما لحق المدينة بالضبط، وهذا ما يُثمّن العلاقة الوطيدة التي تنسجها الذات بالأمكنة وبأقنوم الهويّة، هذا الأخير الذي لا يمكن أن يتحدّد لولا تلاحم الذات بالمكان، فالهويّة والوطن –قبل كلّ شيء– مكان، أو هو موقع مبرّر، وظرف مقدّر، ذلك أنّه " يسكن الإنسان وهو في ضمير الوجود قبل أن يصبح الإنسان من ساكنيه، أو من أهله المنتمين إليه، فكلّ إنسان يولد له موقع في شجرة أنساب عائلته بالوطن، فقد يولد البعض في غير أوطانهم، لكنّ القاعدة في الحياة أنّ أرض الوطن تمثّل أمّ الإنسان التي تحمله من المهد حتى يضمّه اللّحد، بعد أمّه التي تحمله من نفخة الروح إلى أن يقلّه المهد"[9].

العدد: 02/سبتمبر2019 المجلد: 08 ISSN: 1112-7015
ص: 37 - 51 EISSN: 2602-5973

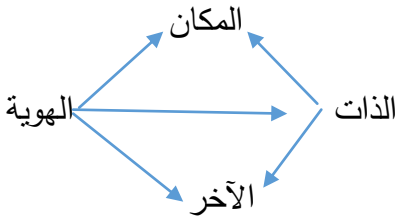


حيث يذهب "تزفيتان تودوروف" إلى اعتبار الآخر المحضن الوجودي للذات " فالصورة التي أراها في المرآة هي بالضرورة غير مكتملة، ومع ذلك وبمعنى من المعاني، فإنّها توفّر لنا نمطا بدئيا من إدراك الذات؛ ولكن شخصا واحدا يحدّق فيّا يمنحني الشعور بأنّني أشكّل وحدة كلية"[10]، وبالتالي لا تتحدّد الذات إلاّ في ضوء آخر مغاير لها: " ودال عليها في الآن نفسه ويصعب بالتالي الاستدلال على الذات من دون معرفة حقيقية وشاملة بالآخر"[11]، في ضوء الآخر المتوحّش المهيمن والمسيطر، تتشكّل الذات المحبطة التي أثقل كاهلها التهميش، ليتأكّد لها في النهاية أنها لم تكن سوى حاشية لمركز مغشوش ومتطفّل.

تتكرر اللازمة الشعرية التي مفادها:

**في القدسِ مَن في القدسِ إلا أنْتْ**

يرتفع سقف الإحساس بالتهميش واللاّوجود بتكرار هذه اللازمة التي كان الشاعر يردّدها نهاية كل مقطع من المشهد الأوّل، ممّا يجسّد الهولوكوست في أقوى صوره على الإطلاق، فليس هناك أسوأ من أن تعي الذات هذه المحرقة، وتتأمّل بنفسها اضمحلال هويتها.

من خلال هذه اللازمة يعلن الشاعر موت التاريخ وموت الإنسان في لحظة يخيّم عليها السكون، ممّا يجعل من الكائن كائنا لا تاريخيا لا يرتبط بماض ولا تاريخ، وإنّما هو " لحظة ممتدّة في ميكانيكيّة تغفل المكوّنات الإنسانيّة"[12].

## 2-المدينة المتخيّلة والتشكّل الهوياتي:

في محاولة من الذات فكّ الحصار عن ذاتها وإبطال ميكانيزمات الهيمنة، وتفكيك السّرود المتسيِّدة التي ابتكرها السارد الآخر، يتّجه الشاعر في مرحلة ثانية إلى تحرير صوت التابع المقهور وتخليصه من عملية الخنق الكولونيالي، وذلك من خلال تصحيح الصورة التي وسمت واقع المدينة، عبر تصيّد اللحظات التاريخية الحاسمة في تاريخ المدينة العتيق، وإعادة

العدد: 02/سبتمبر2019 المجلد: 08 ISSN: 1112-7015
ص: 37 - 51
EISSN: 2602-5973

تشكيلها بصورة صادقة وموضوعيّة، إنّه ينبش في خبايا التاريخ ويستفز مختلف الطاقات الهوياتيّة التي من شأنها أن تعيد للقدس صورتها التي عرفتها منذ عهود مضت.

تعتبر عمليّة استلهام التاريخ والعودة إليه في الكتابة الإبداعيّة من الظواهر الأساسيّة التي أصبحت تسترعي اهتمام الكتّاب والمبدعين، حيث أصبحت ضرورة لا مناص منها، إلى درجة حقّ لنا التساؤل فيها: ما سرّ هذه العودة؟ وأمام خطيّة الحدث التاريخي؛ كيف تتمّ صناعة المكوّن التخييلي؟

يبدأ الشاعر في صناعة صورة أخرى للمدينة عبر تلميعها تاريخيا، ليشرع المكوّن التخييلي في الاشتغال مؤكّدا على البعد الهوياتي الصارخ لكلّ شبر من تلك البقعة الطاهرة، ها هو يخاطب كاتب التاريخ قائلا:

| |
|---|
| يا كاتبَ التاريخِ مَهْلاً، |
| فالمدينةُ دهرُها دهرانِ |
| دهر أجنبي مطمئنٌ لا يغيرُ خطوَه وكأنَّه يمشي خلالَ النومْ |
| وهناك دهرٌ، كامنٌ متلثمٌ يمشي بلا صوتٍ حِذار القومْ |

أما الدّهر الأول فهو الذي حكى عنه الشاعر حينما رصد لنا واقع المدينة، بينما ينكتب الدهر الثاني بكلّ صمت ممثّلا الوجه الحقيقيّ لتلك المدينة، والذي اضطرّ الشاعر في حياكته إلى الاستناد على عديد الخلفيات الحضارية والتاريخية الفعلية التي غيّبتها الأزمان؛ يقول:

| |
|---|
| والقدس تعرف نفسها، |
| إسأل هناك الخلق يدْلُلْكَ الجميعُ |
| فكلُّ شيءٍ في المدينةِ |
| ذو لسانٍ، حين تَسأَلُهُ، يُبينْ |

هو واقع مضاد للواقع المتعفن الأوّل، يلجأ الشاعر في رصد تفاصيله إلى الذاكرة التاريخيّة الجمعيّة، فإذا كان واقع المدينة في المشهد الأوّل من القصيدة قد استند إلى عملية التصوير (تصوير تفاصيل المدينة كما تبدو لأي شاهد عيان)، فإنّ بناء صورة أصلية لمدينة القدس

العدد: 02/سبتمبر2019 المجلد: 08 ISSN: 1112-7015
ص: 37 - 51
EISSN: 2602-5973

العتيقة في هذه المرحلة، ستعتمد استنطاق المكوّن التاريخي الذي من خلاله يتمّ التأكيد على الهويّة المفقودة، يقول:

| |
|---|
| في القدس أبنيةٌ حجارتُها اقتباساتٌ من الإنجيلِ والقرآنْ |
| في القدس تعريفُ الجمالِ مُثَمَّنُ الأضلاعِ أزرقُ، |
| فَوْقَهُ، يا دامَ عِزُّكَ، قُبَّةٌ ذَهَبِيَّةٌ، |
| تبدو برأيي، مثل مرآة محدبة ترى وجه السماء مُلَخَّصَاً فيها |
| تُدَلِّلُها وَتُدْنِيها |
| تُوَزِّعُها كَأَكْياسِ المعُونَةِ في الحِصَارِ لمستَحِقِّيها |
| إذا ما أُمَّةٌ من بعدِ خُطْبَةِ جُمْعَةٍ مَدَّتْ بِأَيْدِيها |
| وفي القدس السماءُ تَفَرَّقَتْ في الناسِ تحمينا ونحميها |
| ونحملُها على أكتافِنا حَمْلاً |
| إذا جَارَت على أقمارِها الأزمانْ |

إلى أن يقول:

| |
|---|
| في القدس رائحةٌ تُلَخِّصُ بابلاً والهندَ في دكانِ عطارٍ بخانِ الزيتْ |
| واللهِ رائحةٌ لها لغةٌ سَتَفْهَمُها إذا أصْغَيتْ |
| "وتقولُ لي إذ يطلقونَ قنابل الغاز المسيِّلِ للدموعِ عَلَيَّ: "لا تحفل بهم |
| "!وتفوحُ من بعدِ انحسارِ الغازِ، وَهْيَ تقولُ لي: "أرأيتْ |

تتجلى قدرة الشاعر ليس فقط في مضمون ما يقول، ولكنّ سردا لتاريخ طال عشرات السنين لا يكلفه أكثر من سطرين شعريين يعدّ فعلا إبداعا لا شك فيه .وكأن تميم يريد أن يقول لنا: "أسمعتم قصة الظاهر بيبرس؟ ذلك المملوك في سوق النخاسة، والذي صار بعد حين بطلا كسر المغول وجاوز السلاطين؟ عظمة لا ينساها التاريخ، لقد بدأ من القدس"[13]. وكأن له رسالة خفية يدسها بين السطور بذكاء الساحر، مفادها أن لا تستهينوا بضعف ظاهري لأصحاب الحق في القدس، فمن غلب المغول لن يستعصي عليه استرداد القدس من محتليه.

من خلال هذا المشهد يمكننا أن ندرك تلك العلاقة الوطيدة بين الهوية والثقافة من جهة، والهوية والتاريخ لأنّ هويات الأمم تعدّ هويات تاريخيّة، تكتسب خصائصها عبر متغيّرات التاريخ، لذلك

العدد: 02/سبتمبر2019 المجلد: 08 ISSN: 1112-7015
ص: 37 - 51
EISSN: 2602-5973

نراها تركن إلى التراث كتراكمات ثقافية تاريخيّة: " إنّ البناء الثقافيّ والهوية التي يؤسّس لها تعتمد رموزا معينة وخطيرة: اسم، أصل، آثار، آداب، خبرات، عادات، ويحاول تصويرها كمنظومة متماسكة"[14].

تشكّل عملية التنقيب في تاريخ المدينة المحتلّة نوعا من المقاومة الرمزيّة، ما يجعل هذا المشهد كخطاب للذات في الردّ على الآخر، وهو ما يتجسّد في جميع ما تحملها المدينة في طياتها من مقوّمات تضمن لها هويّتها الدفينة، ليكون تاريخ المدينة الفعليّ المطمور بمثابة الصوت الطباقيّ الذي من خلاله قدّم الشاعر محاولة أخيرة للتشبّث بالحياة، ليتأكّد لنا أنّ: " الهويّة هي الأنا كضمير فردي وجماعي، وهي الذاكرة بجيناتها الوراثيّة فكرا واعتقادا ومنطق وجود"[15]، وبهذا المنطق تؤكّد لنا القصيدة استحالة موت الهويات وزوال المرويات الكبرى، لأنّ الكينونة مقترنة بالهوية، والهوية مقترنة بهذه المرويات المضمرة في أعماق الذات.

لا يمكن للأنا أن يعرف إلاّ في العلاقة مع الآخر المختلف، إنّني أنا ولست سواي، وإنّ الآخر ليس هو أنا، إنّ الذات هنا تعي وجودها في حضور الآخر أو غيابه، فوعي الذات متوقّف على وعي ووجود الآخر، والأنا لا يتحدّد إلاّ بوجود الآخر، سواء كان فردا أم جماعة[16]، بنفس المتصوّر تقريبا تتشكّل هويّة الفلسطيني كما يحكيها الشاعر في هذه الأسطر الشعرية التي يصوّر فيها ما كانت عليه المدينة قديما، فقد كانت ملتقى الحضارات والأديان ومختلف الثقافات، هذه الأخيرة التي لم تستطع طمس هويّتها بقدر ما عملت على الحفاظ عليها وتجليتها، يقول الشاعر:

| |
|---|
| في القدس تنتظمُ القبورُ، كأنهنَّ سطورُ تاريخِ المدينةِ والكتابُ ترابُها |
| الكل مرُّوا من هُنا |
| فالقدسُ تقبلُ من أتاها كافراً أو مؤمنا |
| أُمرر بها واقرأ شواهدَها بكلِّ لغاتِ أهلِ الأرضِ |
| فيها الزنجُ والإفرنجُ والقِفْجَاقُ والصِّقْلابُ والبُشْنَاقُ |
| والتاتارُ والأتراكُ، أهلُ الله والهلاك، والفقراءُ والملاك، والفجارُ والنساكُ، |
| فيها كلُّ من وطئَ الثَّرى |
| كانوا الهوامشَ في الكتابِ فأصبحوا نَصَّ المدينةِ قبلنا |
| أتراها ضاقت علينا وحدنا |

العدد: 02/سبتمبر2019 المجلد: 08 ISSN: 1112-7015
ص: 37 - 51
EISSN: 2602-5973

| |
|---|
| يا كاتب التاريخِ ماذا جَدَّ فاستثنيتنا |
| يا شيخُ فلتُعِدِ الكتابةَ والقراءةَ مرةً أخرى، أراك لَحَنْتْ |

يحملنا الشاعر على جناحيه ليحلّق بنا في سماء القدس، لنقرأ بعينه تاريخها المسطور بقبور الأمم الغابرة، التي مرت على المدينة من كل أنحاء الدنيا. فمن من أهل الأرض لم يمر هنا، على اختلاف الأصول والملل؟ وفي استفهام تهكميّ وراءه ما وراءه من حزن مستتر، نراه يتساءل هل استثناهم كاتب التاريخ أو حتى نسي وجودهم؟ وفي نبرة يشوبها حزن المظلوم، ولوعة المحروم، يطلب الشاعر من التاريخ أن يعيد النظر مرة أخرى عساه يجد لهم مكانا في كتابه.

فرق شاسع بين ما كتبه التاريخ وما هو سائد في واقع المدينة، تلك الهويات المختلفة كانت كلها هامشية أمام مركزيّة الهويّة الفلسطينيّة، لكن الشيء الذي يحسب لهذه التركيبة هو كونها قد ساهمت في تجلية الهوية الفلسطينيّة، فقد ساهمت في خلق وعي ذاتي لدى الفرد الفلسطينيّ وذلك من منطلق أنّ " الذات حتى تعي ذاتها لابدّ من وجود الآخر المتمايز عنها، حتى يتمّ الإدراك والوعي"[17]، وهذا ما جعل الشاعر يخاطب ويطالب بتصحيح ذلك الواقع المتعفّن، وما مخاطبة "كاتب التاريخ/الشيخ" إلاّ كناية عن الأصالة التي تتمتّع بها الذات الفلسطينية أمام هذا المزيج العرقي والهوياتي وفي نفس الوقت هي دليل وعي بموقع الذات من خارطة وجودها التاريخي

المدينة المتخيّلة كما رسم الشاعر تفاصيلها بالاستناد إلى المكوّن التاريخي، تتّجه إلى التأسيس لهويّة مركّبة أساسها الاستشراف، استشراف مستقبل أمّة بكاملها، وقد تجلّت هذه الهويّة في الرّفض القاطع الذي أبدته الذات للتبعيّة والهيمنة والمسخ الهوياتي، والاستلاب الثقافيّ والتمزّق الحضاريّ، "فالأمم كمجموعات متخيّلة والهويات ذوات متخيّلة، هي ما نظن أنّنا نحيا وما نريد أن نكون"[18]، لهذا ختم الشاعر بمقطع غاية في الأهميّة، لخّص فيه موقع الذات والمدينة من كلّ الشّتات الذي كانت تعانيه، ليستشرف لها موقعا في المركز أساسه الهيئة التي ينبغي أن تكون عليها الذات، فيقول:

| |
|---|
| العين تُغْمِضُ، ثمَّ تنظُرُ، سائقُ السيارةِ الصفراءِ، مالَ بنا شَمالاً نائياً عن بابها |
| والقدس صارت خلفنا |
| والعينُ تبصرُها بمرآةِ اليمينِ، |

| |
|---|
| تَغَيَّرَتْ ألوانُها في الشمسِ، مِنْ قبلِ الغيابْ |
| إذ فاجَأْتني بسمةٌ لم أدْرِ كيفَ تَسَلَّلَتْ للوَجْهِ |
| قالت لي وقد أَمْعَنْتُ ما أَمْعنْتْ |
| يا أيها الباكي وراءَ السورِ، أحمقُ أَنْتْ؟ |
| أَجُنِنْتْ؟ |
| لا تبكِ عينُكَ أيها المنسيُّ من متنِ الكتابْ |
| لا تبكِ عينُكَ أيها العَرَبِيُّ واعلمْ أنَّهُ |
| في القدسِ من في القدسِ لكنْ |
| لا أَرَى في القدسِ إلا أَنْتْ |

## خاتمة:

–إنّ البحث في متخيّل المدينة في علاقته بمحرقة الهوية في هذه القصيدة قد أكّد لنا تلك العلاقة الوطيدة التي تنشدها الأمكنة بالهوية، وكيف كان للمكان سلطته وهيبته في الحفاظ على الهوية.

–واقع المدينة كما صوّره الشاعر هو واقع للضياع والتيه الهوياتي، في واقع المدينة تلاشت الذات وانتقلت من كونها متن نص إلى حاشية وهامش.

–في واقع المدينة يتعالى الصوت الإمبراطوري مفكّكا جغرافيّة الأمكنة معطّلا ذاكرتها، ليكون حاجزا بين الذات وذاتها.

–في واقع المدينة يتّحد مصير الذات ومصير المدينة ليشكّلا بتظافرهما صورة كئيبة باهتة لمدينة بلا معالم، وذات متوتّرة ضائعة بلا هويّة.

–شكّل الاشتغال على متخيّل المدينة نوعا من المقاومة الرمزيّة، ففي المدينة المتخيّلة التي رسم لها الشاعر معالم هويّة جديدة، تشكّل خطاب مضاد للصوت الإمبراطوري حيث كان خطابا للذات في الردّ على الآخر.

–في المدينة المتخيّلة تمّ الاشتغال على المكوّن التاريخيّ الذي أكّد لنا من خلاله الشاعر استحالة موت المرويات الكبرى من جهة، ومن جهة أخرى الإلحاح على العلاقة الوطيدة الموجودة بين الهويّة وتلك المرويات المضمرة في أعماق الذات.

العدد: 02/سبتمبر2019 المجلد: 08 ISSN: 1112-7015
ص: 37 - 51
EISSN: 2602-5973

–المدينة المتخيّلة هي في صميمها إلحاح على الهويّة المفقودة، ودليل على الرفض القاطع الذي أبدته الذات للتبعيّة والهيمنة والمسخ الهوياتي، والاستلاب الثقافيّ والتمزّق الحضاريّ.

العدد: 02/سبتمبر2019 المجلد: 08 ISSN: 1112-7015
ص: 37 - 51 EISSN: 2602-5973

# الهوامـــــــــش:

[1]-**الهولوكوست** )من اليونانية :*holókaustos* ὁλόκαυστος حيث *hólos*تعني "الكل" و *kaustós*الهولوكوست: تعني "محروق")، تُعرف أيضاً باسم **شواه** )عبرية :השואה تلفظ *هاشواه* وتعني "الكارثة")، هي إبادة جماعية وقعت خلال الحرب العالمية الثانية قُتِل فيها ما يقرب من ستة ملايين يهودي أوروبي على يد النظام النازي لأدولف هتلر والمتعاونين معه .يستخدم بعض المؤرخين تعريف الهولوكوست الذي يضم الخمس ملايين إنسان الإضافيين من غير اليهود الذين كانوا أيضاً من ضحايا القتل الجماعي للنظام النازي، ليصبح المجموع الكلي إلى ما يقرب الأحد عشر مليون إنسان. جرت عمليات القتل في جميع أنحاء ألمانيا النازية والمناطق المحتلة من قبل ألمانيا في أوروبا.استهدف النظام النازي والمتواطئين معه اليهود وجرى قتلهم بطريقة منهجية في خضم الحرب العالمية الثانية خلال الفترة الممتدة من عام 1941حتى 1945، في إحدى أكبر الإبادات الجماعية في التاريخ البشري، وكان اضطهاد وقتل اليهود جزءاً من مجموعة أوسع نطاقاً لأعمال الاضطهاد والقتل الممنهجة التي نفذها نظام هتلر والمتعاونون معه بحق العديد من المجموعات العرقية والسياسية المختلفة وتحديداً الإبادة الجماعية لشعب الغجر الروم والمعاقين والمعارضين السياسيين وغيرهم الكثير .

[2]–م, روزينتال وب.بودين: الموسوعة الفلسفية، تر: سمير كرم، دار الطباعة، لبنان، 1981، ط4، ص564.

[3]–مجلة الاختلاف، وحيد بن بوعزيز: حوار مع الدكتور عبد الله إبراهيم، ع2، سبتمبر 2003، ص62.

[4] تميم البرغوثي، في القدس، الموسوعة العالمية للشعر العربي،adab.com ,WWW–

[5]–مرام أمان الله، قراءة في قصيدة "في القدس لتميم البرغوثي، مجلة عود الند، ع16، سبتمبر 2007.

[6]ظافر مقدادي، الرمزيّة الميتولوجية في شعر محمود درويش، www.midle-east.oneline.com -2009/08/07.

[7]-**أسفار العهد القديم**:

"التوراة" : اسم عبراني ، وقد تكلف النحاة في اشتقاقها وفي وزنها وذلك بعد تقرير النحاة أن الأسماء الأعجمية لا يدخلها اشتقاق ، وأنها لا توزن ، يعنون اشتقاقاً عربياً.

فأمّا اشتقاق : التوراة ، ففيه قولان : أحدهما : إنها من : ورى الزند يري ، إذا قدح وظهر منه النار ، فكأن التوراة ضياء من الظلال ، وهذا الاشتقاق قول الجمهور.

وذهب أبو فيد مؤرج السدوسي إلى أنها مشتقة من : ورَّى ، كما روي أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد سفراً ورى بغيره ، لأن أكثر التوراة تلويح.

وأما وزنها فذهب الخليل ، وسيبويه ، وسائر البصريين إلى أن وزنها : فوعلة ، والتاء بدل من الواو ، كما أبدلت في : تولج ، فالأصل فيها ووزنه : وولج ، لأنهما من ورى ، ومن ولج.

فهي : كحوقلة ، وذهب الفراء إلى أن وزنها : تفعلة ، كتوصية.

ثم أبدلت كسرة العين فتحة والياء ألفا.

كما قالوا في : ناصية ، وجارية : ناصاه وجاراه.

وقال الزجاج : كأنه يجيز في توصية توصاه ، وهذا غير مسموع.

وذهب بعض الكوفيين إلى أن وزنها : تفعلة ، بفتح العين من : وريت بك زنادي ، وتجوز إمالة التوراة.

- السفر الأول: وهو سفر التكوين أو الخلق، وقد ذكر فيه خلق العالم، وقصة آدم وحواء وأولادهما، ونوح والطوفان وتبلبل الألسن، ثم قصة إبراهيم وابنه اسحاق وابنه يعقوب وعيسو، ثم قصة يوسف.
- السفر الثاني: ويسمى سفر الخروج- أى خروج اليهود من مصر- وفيه قصة موسى من والدته وبعثته، وفرعون وخروج بني إسرائيل من مصر، وصعود موسى الجبل وإيتاء الله له الألواح.
- السفر الثالث :سفر اللاويين-أي الأحبار- وفيه حكم القربان والطهارة ومايجوز أكله، وغير ذلك من الفرائض والحدود.
- السفر الرابع :سفر العدد، بعضه في الشرائع، وبعضه في أخبار موسى وبني إسرائيل في التيه وقصة البقرة.
- السفر الخامس :سفر التثنية - أي إعادة الناموس. عن ويكيبيديا.

:

[8]-سليمة مسعودي وآخرون، العين الثالثة تطبيقات في النّقد الثقافي وما بعد الكولونيالي، دار ميم للنشر ، ط1، الجزائر، 2018، ص87.

[9]-ماهر الجويني وأخرون، السؤال عن الهوية في التأسيس والنقد والمستقبل، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر، 2016، ص304.

[10]-تزفيتان تودوروف، ميخائيل باختين: المبدأ الحواري، تر: فخري صالح، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنّشر، لبنان، ط2، 1996، ص176.

[11]- جون بول سارتر، الوجود والعدم بحث في الأنطولوجيا الظاهراتية، تر: عبد الرحمن بدوي، دار الآداب، لبنان، 1966، ط1، ص 153.

[12]-سليمة مسعودي وآخرون، العين الثالثة، ص88.

[13]- مرام أمان الله، قراءة في قصيدة "في القدس لتميم البرغوثي، مجلة عود الند.

[14]-عبد الله حمودي، الحداثة والهوية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 2015، ص200.

[15]-مطاع الصفدي، فلسفة الحداثة السياسيّة نقد الاستراتيجية الحضاريّة، مركز الإنماء القومي، بيروت، 2002، ص253.

[16]-عبد الغني بوالسكك وآخرون، السؤال عن الهويّة، في التأسيس والنقد والمستقبل، ص68.

[17]- م ن، ص ن.

[18]-صموئيل هينتينجتون، من نحن؟ التحديات التي تواجه الهويّة الأمريكية، تر حسام الدين خضور، دار الرأي، ط1، دمشق، 2005، ص44.